سيميائية الصمت في رواية «فوضى الحواس» لأحلام مستغانمي

الدكتور: جمال مباركي
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جـامعة بسكـرة

«الحق أخرس والباطل له ألف لسان» قول عربي.
«كل شيء يكتمل في الصمت» أمبرتو إيكو.

حينما ترتبك الحواس ويحدث التشويش والفوضى بينها جرّاء فوضى السياسة، فوضى التخطيط، فوضى الفكر، فوضى الأشياء، فوضى الوجود.. تكون الإشارة أَبْلغ من العبارة، والصّمت أبلغ من الكلام، وتصبح اللغة اللسانية لا تؤدّي وظائفها التبليغية، و"أداة ارتياب لا تسع للتعبير عن كل المشاعر فوحدها حواسنا لا تكذب(1) كما تقول الروائية في روايتها فوضى الحواس.(2)

وربما لهذا تركت الكاتبة مساحات واسعة للصّمت في روايتها، حيث أوقفت اشتغال لغة الكلام، لتشرع في توظيف لغة الصمت، ورأت أن"البياض هو الحد الأقصى لأيّة مساحة روائية، وأنه الإنجاز الوحيد في أي كتاب، وأن كل رواية لا بد أن تنتهي باحتمالات البياض(3). كما قالت:"إن الإنجاز الوحيد بالنسبة إلى أي كاتب هو ما يتركه في كتابه من بياض. كل صفحة بيضاء في كتاب هي مساحة مسروقة من الحياة، لأنها تصلح بداية لقصة أخرى أو كتابٍ آخر(4)، إنه المسكوت عنه وهو الحق والحقيقة معا.

ومن فيض هذا البياض ورحم الصمت ولدت صفحات هذه المداخلة.

فما هو الصّمت؟ وما موقف القدامى والمحدثين منه؟ ولماذا يقصد الروائي إليه؟ وما دلالاته في فوضى الحواس؟. وأخيرا ما الجماليات التي يضفيها على النص الروائي؟

وقبل تناول ظاهرة الصّمت في رواية «فوضى الحواس» يجدر بنا أن نتوقف عند مفهوم الصمت والإجابة عن الأسئلة السابقة.

1/الصّمت في اللغة والاصطلاح:

الصّمت في اللغة العربية يعني السكوت. يقال: صمتَ يَصْمُت صمْتًا وصموتًا وصُماتا، وأصمَتَ أطال السكوت.

والتصميت: التّسكيت، ورجل صميت أي سكيتٌ. (5)

والصُّمتة: هي قدْرُ ما تُصمِّتُ به الأم صبيّها من الطّعم ليلة واحدة، أي تسكته. (6)

والصامت الذهب والفضة، والناطق الإبل والغنم، ورغم أن الصمت ينافي الصوت والكلام، فإنه يتصل بهما ويعبر عنهما.

وعلى هذا فالصمت في العربية قطع الكلام، ووقف التلفظ بالصوت، فكما يعبّر بالصوت (الكلام)، يعبّر بنقيضه السكوت، لأن الأمور تعزى بأضدادها أحيانا، وعندما تعجز اللغة المنطوقة عن التعبير، فإن الصمت يقوم بهذا الدور البليغ في التعبير اللامحدود عن الموقف. (7)

وباب الصّمت أولاه البلاغيون وعلماء اللغة الكبار- من القدماء والمحدثين- اهتماما بالغا، وعدُّوه سلوك القادرين في اللغة والمتمرسين في البلاغة، والمالكين لحصافة الرأي وسلامة النطق، وإن التعبير بالصّمت من أساليب القول البليغ، لأن التعبير البليغ أحيانا لا يحتاج إلى مزيد كلام، و"خير الكلام ما لا يحتاج فيه إلى كلام".(8)

2/ الصّمت في التراث العربي:

للصمت في التراث العربي مواقيته ومقاماته، لهذا حفل بكثير من النصوص التي تمجّده، فقد روي عن يونس- عليه السلام- أنه لما خرج من بطن الحوت، طال صمته، فقيل له:

ألا تتكلم؟ فقال: الكلام صيّرني في بطن الحوت !!

وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرة عن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه قال:"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو ليصمت". وروي عن أبي موسى الأشعري، أنه قال: قلت يا رسول الله: أيّ المسلمين أفضل؟ قال: "من سلم الناس من لسانه ويده".

وفي كتاب الترميذي عن عقبة بن عامر أنه قال: قلت لرسول الله: "ما النجاةُ؟ فقال: امسك عليك لسانك وليسعْك بيتك وابكِ على خطيئتك".

وعن علي بن أبي طالب-كرم الله وجهه- أنه قال بكثرة الصمت تكون الهيبة !
وقال لقمان الحكيم يعظ ولده: يا بني إذا افتخر الناس بحسن كلامهم، فافتخر أنت بحسن صمتك. (9)

ولا يعني تمجيد التراث للصمت ذمّ الكلام، وإنما يقصد أن هناك مواقف يحسن فيها السكوت، ومواقف أخرى يصبح فيها الصمت ذميما، فقد قال النبي- صلى الله عليه وسلم- :"الساكت عن الحق شيطان أخرس". وقال أيضا:" من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه..." (10). وقال زهير بن أبي سلمى مشيدا بالكلام الذي من خلاله نتبيّن مرتبة الإنسان في البلاغة، أهو حصر عيّي أم بليغ مفحم:

وكائنْ تَرَى من صامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلّمِ(11)

ومعناه: كم صامتٍ يُعجبك صمته، وإنما تظهر زيادته على غيره ونقصانه من غيره عند تكلمه.
وإخفاء الكلام(الصمت) خصيصة إبلاغية أشاد بها شعراء العربية قديما، فقال المتنبي مخاطبا كافورا:

وَفي النّفْسِ حاجاتٌ وَفيكَ فَطَانَةٌ سُكُوتي بَيَانٌ عِنْدَها وَخِطابُ(12)

فالسكوت هنا هو إشارة كلام وخطاب وبيان، وأن موقف التعبير بالصمت يتطلب فهما ونباهة وفطنةَ مُخاطَبٍ، وإلاّ كان الصّمت كالعدم، وليس أدل على ذلك قول المتنبي قبل الطلب:"وفيك فطانة". والمقصود: إن في نفسي حاجات لم يفصح عنها لساني، وأنت إنسان فطن تدركها رغم سكوتي.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن الصمت وارتباطه بالأخلاق والآداب(13)، وإنما ينصب بحثنا في الصّمت الفنّي الكتابي بوصفه قوة إيحائية عميقة التأثير في المتلقي، تناولها بلاغيونا وعلماء اللغة العربية بمفهوم الحذف والإضمار؛ فالأول يعني قطع الشيء من طرفه، والثاني إخفاؤه، وهو "من دقائق اللغة وعجيب سرّها، وبديع أساليبها، إنّك قد ترى الجمال والرّوعة تتجلّى في الكلام، إذا أنت حذفت أحد ركني الجملة أو شيئا من متعلقاتها".(14)

والحذف يشمل الجوانب اللغوية الثلاثة: الصّوت، والصرف، والتركيب، ويصيب العنصر الأساسي في الجملة، كما يصيب المكملات فيها، ويقع على جميع أقسام الكلام(اسم، فعل،

حرف) بالإضافة إلى الجمل والتراكيب. (15)

وأدبية الحذف عند عبد القاهر الجرجاني (ت471 هـ)، "باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذِّكر أفصح من الذِّكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تُبِنْ"(16).

للحذف- إذًا- أهميته في البيان والبلاغة، وهذا القطف في اللغة "موضوع على غاية من الدقة والتعقيد، بل هو باب البلاغة وقطب الرحى فيها وعليه مدار الإعجاز"(17).

وقد نظر البلاغي العربي إلى السكوت من عدة زوايا هي المُتكلم والمتكلم إليه ومقام القول، فربما مدح أهل البلاغة عدم البوح في سياق وذموه في مقام آخر، ولكن في كل الأحوال يميلون إلى الإيجاز، ويستحسنون الاختصار الذي يقوم على حذف بعض الكلام(18)، يقول الجاحظ:" واعلم أن الصمت قي موضعه ربما كان أنفع مع الإبلاغ بالمنطق في موضعه وعند إصابة فرصته"(19).

3/ الصّمت في السرد الروائي:

اشتغال الصّمت بأشكال شتى في نسيج الرواية لفت انتباه علماء الخطاب والسرد، ولكنهم لم يعنوا" قضية الصمت عناية شاملة، إذ اقتصرت بحوثهم في معظم الأحيان على علاقة الصّمت بالزمن التي تجعل الأحداث تسرع، فسرعة الأحداث تبلغ أقصاها في الإضمار(Ellipse) الذي يكون بإسقاط جزء من الحكاية في النص". (20)

وفي كثير من الأحيان يحتل الصمت مساحة ضمن النسيج السردي الموجز الذي قوامه إسقاط التفاصيل، أو حجب المعلومات عن القارئ، ويسميه جينيت (Gérard Genette) تبئيرا خارجيا(Focalisation externe) الذي يكتفي فيه الرّاوي بذكر ما يظهر من أحوال، ويسكت عمّا وراءها من أشياء، وأحيانا يشحُّ الرّاوي عن ذكر بعض المعلومات ويسمي "جينات" ذلك تبئيرا صفريا وحجابا سرديا (Paralipse)(21)، ويمكن أن نسميه الحذف الضمني الذي يهتدي إليه القارئ باقتفاء أثر الثغرات والانقطاعات الحاصلة في التسلسل الزمني.

وهكذا يصبح الصّمت تقنية فنية، هو على حدّ قول "هافال" (Heaval):" تلفظ غائب أو بالغياب(Un acte énonciatif in absentia)، وهو على عكس النطق والكتابة المجسّدين في الصوت، فالخط لا ينشئ ملفوظا لسانيا(Un énoncé linguistique)، وإنما يدرك وجوده بعلامات في النص تشير إليه مثل الفراغ(vide)، والغياب(Absence) والفجوة في الكتابة (interstices de l'écrit) وتخفيض حجم المقول..."(22).

ويشتغل الصمت في السرد بمختلف دلالاته حينما يدخل في تركيبة بنائية مع باقي التوابع الأخرى، فيمتزج الحاضر والغائب المكتوب والمسكوت عنه. الصمت "شأنه شأن أي علامة لا تعمل بمفردها، فالموقف الإنساني هو الذي يحدد طبيعة اشتغال الصمت، حيث يمكن لعملية التوزيع المتناسق بين الحوار والصمت وباقي عناصر البنى الصوتية تشكيل قِيَمًا غنية الدلالة"(23)، وعليه لا يمكن دراسة الصمت في النص السردي في غياب المكتوب أو المطبوع.

ويأتي الصمت في النص السردي المعاصر على شكل بياض مكاني، يعلن عن نهاية فصل، وقد يفصل بين اللقطات بإشارات دالة على الانقطاع الحدثي والزماني، ويمكن أن يتخلل الكتابة ذاتها للتعبير عن أشياء محذوفة أو مسكوت عنها، وفي هذه الحالة يدل على البياض بين الكلمات والجمل بنقط متتابعة، قد ينحصر في نقطتين(..)، أو يتجاوز إلى ثلاث نقط(...) أو أكثر، وقد يكون هذا الانتقال دالاّ على مرور زمني أو حدثي، وما يتبع ذلك من تغيّرات مكانية على مستوى القصة ذاتها(24)، وقد يعبر الراوي ومن ورائه الكاتب بمادة (صمت) ومشتقاتها صراحة.

ولقد جئنا بهذا المهاد النظري ليكون مدخلا لدراسة سيميائية الصمت في "فوضى الحواس" لأحلام مستغانمي.

4/سيميائية الصمت في "فوضى الحواس" لأحلام مستغانمي.

يقول فاليري:" كل ذرة من الصمت فرصة لثمرة ناضجة"(25)، إنّه الصمت الذي يحيل ولا يقول لصعوبة التعبير المباشر، بل حتى الرمزي عن واقع ما، إحساس ما، وهذا ما بدا جليّا في رواية "فوضى الحواس"، يقول الرّاوي:" كل ما كان يعنيني، أن أكتب شيئا، أي شيء

أكسر به سنين من الصمت...لا أدري كيف ولدت هذه القصة أدري كيف ولد صمتي، ولكن تلك قصة أخرى"(26).

فالصمت هنا صمت قهري سياسي واجتماعي تريد تكسيره بالكتابة، ولكن الوقت لم يحن بعد، إنه الصمت الصاخب أو الصمت المهيأ للانفجار، تقول الساردة متحدثة عن أخيها ناصر:"ماذا تراه كان يخبّئ تحت برنس الصّمت؟، فأصبحت لا أدري كيف أواصل معه الحديث. صاح بي:"ولأنّك كاتبة عليك أن تصمتي..أن تنتحري. لقد تحوّلنا في بضعة أسابيع من أمّة كانت تملك ترسانة نووية إلى أمّة لم يتركوا لها سوى السكاكين..وأنت تكتبين!. وتحوّلنا من أمة تملك أكبر احتياطي مالي في العالم، إلى قبائل متسوّلة في المحافل الدولية...وأنت تكتبين!. هؤلاء الذين تكتبين من أجلهم..إنهم ينتظرون أن يتصدق عليهم الناس بالرغيف والأدوية..ولا يملكون ثمن كتاب...فاصمتي حزنا عليهم.. !". (27)

ولم يتوقع ناصر أنه بهذا الكشف الصريح عن حاضر أحوال الأمة العربية سيغير مسار الساردة(حياة) ومن ورائها الكاتبة في الكتابة، وسيرغمها على الصمت سنتين..."سنتين كاملتين، تعلمت فيها أن احتقر كل أولئك الكتاب، الذين في الجرائد والمجلاّت واصلوا الحياة دون خجل، أمام جثمان العروبة"(28).

فالصمت هنا اتخذ في النص السردي هيئتين متآزرتين: إما ذكر كلمة"الصمت" صراحة، أو استخدامه بوصفه فاصلا تقليديا لتقطيع الجمل الكلامية، وهو هنا علامة تنقيطية(نقطتان أو ثلاث نقاط متوالية) يحددها السياق العام للكلام. وقد جاء الصمت بوصفه علامة دالة على الموقف الداخلي مما يجري في الواقع، وهو صمت الرفض؛ فناصر يرفض"أن اشتُم أمامه نظاما عربيّا بالتحديد. فإمّا أن اشتُمها واحدا..واحدا..(لأسباب يسردها عليّ مطولة مفصّلة..ومقنعة) أو أصمت. ففي شتْم نظام عربي دون آخر، بالنسبة إليه، ما يفوق جريمة السكوت عنه"(29).

يقول باتريك تاكسويل عن قوانين مالا يقال: السكوت والسر:" إن البعد الرمزي للسكوت- الصمت- يبدو أنه يصدر عن تنسيق غير مرئي، من تَحسُّب بسيط بعض الشيء، الصمت له وجود كنوع من الإدراك، مستبطن على مستويات مختلفة من الشخصية، ومن ثم فهو

اجتماعي أكثر مما هو نفساني، بل إنه في الإمكان تصنيف الصمت اللاإرادي عند الجاهل: صمت الاعتراف المؤدب"(30).

فناصر يريد بالصمت إيصال ما يعجز عنه الكلام، فالكل مشتركون والكل يستحق الشّتم. والصمت هنا يشتغل بوصفه علامة سيميولوجية دالة على اللامبالاة حين يصبح الصمت أجوبة عن الأسئلة التافهة؛ الصمت هو جواب الساردة عن أسئلة أمها؟ "أصمت لأنها في جميع الحالات لن تفهم...تسألني عن أخبار زوجي. أجيب أنه جيد. وأكاد لا أجيب. مرّةً أخرى أتذكّر فلسفة ذلك الرّجل الذي كان يجيب بالصمت عن الأسئلة الغبية"(31). فهذا الرجل مذهل بكلامه المربك كصمته(32). والناس لا يطرحون عليك إلا أسئلة غبية، يجبرونك على الرّد عليها بأجوبة غبية مثلها..يسألونك ماذا تملك، لا ماذا فقدت. يسألونك عن أخبار المرأة التي تزوجتها..لا عن أخبار تلك التي تحبها..يسألونك هل تصلي...ولا يسألونك هل تخاف الله..ولذا تعودت أن أجيب عن هذه الأسئلة بالصمت. فنحن عندما نصمت نجبر الآخرين على تدارك خطئهم. (33)

كما تتراوح الأصوات بين الصمت واللامقال، فالبطل لا يتحدث أو يقول جملا قصيرة تخفي الجزء الأساسي للمعنى، وعلى المتلقي أن يكمله، تقول:"هل أفهم أنك لست عاشقا؟ فيبقى سؤالها معلقا إلى صمته: وتداركت خطأها، وأعادت طرح السؤال بصيغة أخرى: إذن ليس في حياتك امرأة؟ أجاب:" كم يلزمني من الصمت يا سيدتي لأرد على أسئلتك، كان علي أن أفهم، كم يلزمني من الصبر يا سيدتي لأرد على فضولك أو ربما على أسئلتك الغبية".(34)

كما استخدمت الروائية الصمت بوصفه علامة دالة على الانبهار والخوف، فهي أنثى الصمت وأنثى الأرق، تقول:" تسمّرت مكاني دَهشة. تأملته غير مصدقة. فاجأني صمت الارتباك الجميل. فبقينا للحظات يتأمل أحدنا الآخر بوقع المصادفة...مشينا خطوات معًا، دون وجهة محددة، معرضين جنوننا للانتظار ثم توقفنا فجأة مثقلين بصمت الأسئلة".(35)

ويأتي الصمت تعبيرا عن المشاعر الدفينة التي يعيشها البشر وراء الكلمات الاجتماعية، فالصمت هو الكلام الذي لا يقال، بحيث" جد أن الجمل والكلمات المنطوقة ليست إلا قشرة رفيعة لكتلة الصمت التي تحملها، ونادرا ما يتجاوز الكلام الذي يقال في الكليشيه الاجتماعي

والجمل المتفق عليها في التواطؤ الاجتماعي" (36)، فهذا الرجل الذي التقته الساردة، " رجل يغشاه الصمت والتباسه، وله هذه القدرة الخرافية على خلق حالة من الارتباك الجميل...وربما تمنيت سرًّا، لو كان هذا الرجل لي، إنّه على مقياس صمتي ولغتي، وهو مطابق لمزاج حزني وشهوتي...صمته المكابر يربكني. معطفه السميك يزعجني، وكلماته القاطعة أصبحت مقصلة لأي مشروع نص قادم..." .(37)

وقد يعبر الصمت عن التشيؤ، إذ لا يبقى لكلمات اللغة فعالية تذكر، فنرى البطل فاقدا تماما الرغبة في الحديث، لا يهتم بتعميق السؤال أو البحث عن الجواب، بحث يصبح الكلام لا دفء له ولا معنى ولا جدوى، حين تفقد الكلمات دلالتها، قال وهو يشعل سيجارته: " لا جدوى من الاحتماء بمظلة الكلمات..فالصمت أمام المطر أجمل"...لطالما دوّختها تفاصيل الرجولة، تلك التي لها كبرياء الإيحاء، وذلك الاستفزاز الحميمي الصامت".(38)..خفت على ذلك الشيء الجميل الذي عشته بصمت جوار رجل غريب، أن ينطفئ داخلي بسرعة، أن يقتله أو يبعثره الشارع".(39)

فالصمت هو الكتابة البيضاء تعبر عن اللاتواصل وعن العمل البطيء لكل الحياة، بحيث نلحظ الصمت العميق للبطل، "كان على قدر كبير من الوسامة..وكنت أشعر بمودة غامضة تجاه هذا الوجه، وضعف تجاه هذا الحضور الرّجالي الصامت الذي لا يشبه في شيء التصرفات الذكورية في هذه المدينة أكان منشغلا عنّي حقًّا؟ أم كان فقط يتحرش بي بصمته..يجلس أمامي هكذا على مرمى قدر، ...كم تمنيت لحظتها أن ينطق ! ولكنه كان يعبث بي بكلام لا يقال إلاّ صمتا، ويدخلني في حالة من الارتباك الجميل".(40)

ينطفئ داخلي بسرعة، أن يقتله أو يبعثر".(41)

فالمسكوت عنه هنا هام، وربما أهم ما يقال في النص، بحث تقول المشاهد ما لا يقوله الكلام، يمثل الصمت واللاتواصل بين شخصيات الرواية سمة أساسية لمضمونها، "في لحظة ما، بدا لي وكأنه على وشك أن يبادرني بالكلام. فقد توقف بين جملتين وراح ينظر إليّ دون أن يقول شيئا".(42)

"عشرة أيام من الترقب الصامت".(43)

وقد يأتي الصمت علامة دالة مرتبطة بالعامل السيكولوجي للشخصية المرسلة للخطاب، فالساردة تصمت لتترك المجال لأسئلة أكبر وكثيرا من صمت الأسئلة، فهي تجيب عن سؤال النادل بالجواب نفسه"نريد كوكا". وكأنها تقول: تريد أن تتركنا وشأنها.(44)

وهذا الجدل بين الصمت والكلام من سمات الرواية الحديثة، وقد نظرت إليها الروائية الفرنسية "نتالي ساروت" عبر مفهومها للعلاقة بين الحديث والحديث التحتي، فينقل الحديث حسب رأيها، الكلمات المتفق عليها اجتماعيا، بينما الحقيقة تدفن فيما تسميه بالحديث التحتي. (45)

فالصمت حديث الأعماق، ففيما سبق الحديث بين الساردة وبطل الرواية دار بينهما كلام صامت، بين الاستماع إليها والغياب، بل لا يسمعها أحيانا، عندما تسأله بالصمت تطرح سلسلة من الأسئلة لنفسها وللقارئ، "أن يسترق النظر إليّ أثناء حديثه، هذا لا يعني شيئا؛ أي رجل غيره، كان تصرف كذلك، على الأقل من باب الفضول، إن لم يكن من باب التحرش الصامت بأنثى تجازف بالجلوس بمفردها في مقهى بمدينة كهذه. إنه رجل يشي به الصّمت، وتلك الزاوية اليمنى التي اختارها للجلوس مقابلا للذاكرة".(46)

"أجاب ضاحكا: - لا..ولكني أعرف لك طريقة في ارتداء الأسود..لكنه معك لون خلق للفتنة..لا للزهد- وأما صمتي واستغرابي لكلام من الواضح أنني لم أفهمه واصل: الأبيض هو خدعة الألوان..ألا تعرفين هذا؟

قلت كمن يعتذر:

لا..لا أعرف. وغرقت في لحظة صمت".(47)

الصمت هروب وجمالية:

يبدو كأن رواية فوضى الحواس لا تنمو إلا بكل ما لا يقال، كأن هناك نوعا من موسيقى الصمت، نوعا من الجدل بين الكلام والصمت، وهو جدل عميق بين الظاهر والباطن، بين الحقيقة والزيف، "كنت استمع إليه دون أن أجرؤ على مقاطعته بكلمة وجدتُ في صمتي ملاذًا، وإيهاما له بأنني أعرف كل هذا، إضافة إلى تلك الحالة الجمالية التي يضفيها الصمت في مواقف كهذه".(48)

"خفت أن أصارحه، فأكسّر كثيرا من جمالية وهم كل منا بالآخر فبقيت صامتة، كي استمتع بوضعي الملتبس بين امرأتين، واحدة يطاردها لأنها ترتدي الأسود، والأخرى تطارده لأنّه قال"قطعا"(49). "نتسلق حبًّا شاهقا في صمته التصاعدي"(50). "تبعث عن مبررات حزنه الباذخ، ونوبات صمته، ونزعته إلى التهرب من الأسئلة"(51). " لم يعترف أن ما يزعجه هو الكتابة في حدّ ذاتها، بوصفها مواجهة، ومراوغة صامتة، وتمارس عادتها في الكتابة صمتا"(52).

وهذه الرواية تقوم على أعمدة الصمت، بحيث تكون كلمات الصمت وترك فضاءات للبياض هي أساس الفن الروائي، "لو أنه تحدّث لساعدني بعض الشيء على فهم ما يحدث. ولكنه لم يفتح أيّة نافذة للكلام، وظل مشغولا عنّي بمتابعة ذلك الفيلم. دون أن يتوقف أثناء ذلك عن بثّ ذبذبات حديث يقال صمتًا في عتمة الحواس".(53)

"وأنا نفسي، لم أجد معه شيئا يمكن أن يقال، وقد انطفأ معه الكلام، لتشتغل به مساحات الصّمت".(54)

فالصمت واللاتواصل هو السمة الأساسية بين الساردة وبطل الروية،"مذ قال هذا الرجل كلمة واحدة وصمت! " (55)، "هل صمت كي يقنعني بحجة قاطعة أنه رجل اللغة القاطعة".(56)

"اعتقد أن نظراته قد رافقتني حتّى مغادرتي القاعة. فقد أحسست بها تودّعني بصمت، ولكن دون أن يكلّف نفسه مشقة استبقائي بكلمة.. أو سؤال". (57)

"ولأننا نقرن الصمت بالموت والصوت بالحياة، فإن الساردة تجعل من الصمت حياة وصوتا ولغة، ويصبح الصمت مع هذا الرجل حالة لغوية خاصة عندما يخلع صمته ويلبس صوتها وكلماتها المبللة" (58)، ولهذا اختارت في الماضي مهنة التصوير، لأن الصورة لحظة صمت طويل..إنها كالرسم تجربة في الصمت. (59)

وكثيرا ما يذوب التواصل اللغوي في الصمت، فتصبح اللغة فضيلة بالنسبة للصمت، فهذا الرجل يضع بينهما كعادته"منفضة الصمت وأعقاب جمل لم تكتمل، وهي لا تريد"حبّا يقتات بالكلمات، حتى لا يقتله عند البعد صمتنا". (60)

وفي الختام نشير إلا أن الروائية أحلام مستغانمي اتبعت في كتابة روايتها "فوضى الحواس"تقاليد كتابية سردية غربية كان الصمت عمودها الأساسي، مثل رواية "زوربا اليوناني"(61) لـ: كازانتزاكيس، ورواية" السيدة دالوي"(62) فرجينيا وولف، ورواية"العاشق l'ament" (63) لـ: مرجريت ديراس.

الهوامـش والمراجـــع

(1) أحلام مستغانمي: فوضى الحواس، منشورات أحلام مستغانمي، بيروت، ط12، 2003، ص183.

(2) المصدر نفسه، ص20.

(3) المصدر نفسه، ص355.

(4) نفسه، ص271.

(5) ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين بن مكرم): لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ط1، (د، ت)، مادة(ص م ت)، ص35.

(6) الزمخشري(جار الله أبي القاسم محمود بن عمر): أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، (د، ت)، مادة(ص م ت)، ص257.

(7) ينظر: السّهلي بلقاسم:"الاشتغال العلامي لعناصر لغة الخطاب الفلمي-أبنية الخطاب الفلمي"، ندوة الصورة والخطاب 17،18 مارس2009، ضمن كتاب: قضايا النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2009، ص142.

(8) محمد كشاش: اللغة والحواس(رؤية في التواصل والتعبير بالعلامة غير اللسانية)، المكتبة المصرية، سيدا، بيروت، ط1، 2001، ص154.

(9) ينظر: خليل الجيزاوي: مواقيت الصّمت(رواية)، الدار العربية للعلوم ناشرون، القاهرة، ط1، 2007، ص24،23، 25.

(10)

(11) الزّوزني(أبو عبد الله الحسني بن أحمد): شرح المعلقات السبع، تحقيق طلال أحمد، دار الكتاب الحديث، ط1، 2002، ص84. ينظر كذلك: الشنقيطي(أحمد بن الأمين): شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (د، ت)، ص50.

(12) عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، مراجعة: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2004، ص97.

(13) ارتباط الصمت بالآداب والأخلاق بحث يطول الحديث فيه، تحدّثت عنه العرب قديما وحديثا في حكمها وأمثالها وشعرها ونثرها وأقوالها، ويمكن أن نشير إلى قولهم: "زلّة الرجل ولا زلة اللسان". "إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب"."السكوت رد الجواب"، "لسانك حصانك إن صنته صانك وإن خنته خانك". "رب سكوت أبلغ من كلام". "الفم المطبق لا يدخله ذباب". "إذا تم العقل نقص الكلام".

وقال شاعر عربي:إذا ندمت على سكوتك مرّة فلتندمن على الكلام مرارا

وقال آخر: جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

ديوان الشافعي مليء بالحكم التي تحبب الصمت، كقوله:

قُل مَا شِئْت فِي مَسَبّة عِرْضِي فَسُكُوْتِي عَن اللَّئِيم جَـوَابُ

مَـا أَنَا عَادِم الْجَوَاب وَلَكِـن مَا ضَر الأُسَد أَن تُجِيْب الْكِلابُ

وقال أيضا: قالوا: سكتَّ وقد خوصِمْتَ قلتُ لهم إنَّ الجواب لباب الشّر مفتاح

وقال أيضا: والصّمت عن جاهلٍ أو أحمقٌ شرف وفيه أيضًا لصون العرض إصلاحُ

أما ترى الأُسد تخشى وهي صامته؟ والكلبُ يُخسى لعمري، وهو نبّاح

وقال:

وجدت سكوتي متجرا فلزمته إذا لم أجد ربحا فلست بخاسر

ما الصمت إلاّ في الرجال متاجر وتاجره يعلو على كل تاجر

وقال:

والصمت أجمل بالفتى من منطق في غير حينه

وعلى الفتى بطباعه سمه تلوح على جبينه

ينظر: ديوان الإمام الشافعي: جمع وتحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2003، ص44، 63، 81، 148...

ويقول الإمام علي بن أبي طالب:

ما زال ذو صمتٍ وما من مكثرٍ إلاّ يزَلُّ وما يُعابُ صموتُ

إنْ شُبّهَ النّطقُ المبينُ بفضةٍ فالصمتُ دُرٌّ زانهُ ياقوتُ

قال أيضا:

فلا تكنزنّ القول في غير وقته وأدُمِنْ على الصمت المزيّن للعقل

يموتُ الفتى في عثرةٍ بلسانه وليس يموتُ المرء من عثرة الرِّجلِ

ينظر: ديوان الإمام علي بن أبي طالب: شرح يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2004، ص56، 95.

(14) أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة(البيان- المعاني- البديع)، المكتبة العصرية، بيروت، 2004، ص76.

(15) ينظر: نادية رمضان النجّار: أبحاث نحوية ولغوية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2006، ص90 وما بعدها.

(16) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، دار المعرفة، بيروت، (د، ط)، 2001، ص112.

(17) المصدر نفسه، ص نفسها.

(18) ينظر: محي الدين حمدي: مدخل إلى "الصمت في النص السردي"، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، ع8، جانفي 2011، ص136، 137.

(19) الجاحظ(عثمان عمر بن بحر): الرسائل- رسالة المعاش والمعاد، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ص113.

(20) محي الدين حمدي: مدخل إلى "الصمت في النص السردي"، ص141. نقلا عن محمد الخبو: الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صفاقس، تونس، ص135.

(21) المرجع نفسه، ص141. نقلا عن G.genette, figuresIII, p.p129.130

(22) نفسه، ص142، نقلا عن: Pierre Vanden Hewel :Parole, Mot, Silence, librairie José Conti, 1985.p.72.

(23) ينظر: السّهلي بلقاسم :"الاشتغال العلامي لعناصر لغة الخطاب القلمي-أبنية الخطاب القلمي"، مرجع سابق، ص142.

(24) ينظر: حميد لحميداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، ص58، 132.

(25) خليل الجيزاوي، مواقيت الصمت(رواية)، مصدر سابق، ص25.

(26) أحلام مستغانمي: فوضى الحواس، مصدر سابق، ص24،23.

(27) المصدر نفسه، ص129.

(28)نفسه، ص130.

(29) نفسه، ص132.

(30)خليل الجيزاوي، مواقيت الصمت(رواية)، مصدر سابق، ص25. نقلا عن: مجلة ديوجين، مركز مطبوعات اليونيسكو، الطبعة العربية، عدد فبراير- إبريل، 1990.

(31) الرواية، ص100، 101.

(32) المصدر نفسه، ص147، 149.

(33) نفسه، ص79.

(34) نفسه، ص 101،100.

(35) ينظر: نفسه، ص147، 149.

(36) أمينة رشيد: تشظي الزمن في الرواية الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1998، ص149.

(37) نفسه، ص26، 27، 28.

(38) نفسه، ص 29،30.

(39) نفسه، ص60.

(40) نفسه، ص66.

(41) نفسه، ص65.

(42) نفسه، ص99.

(43) نفسه، ص99.

(44) نفسه، ص75 .

(45) ينظر- أمينة رشيد: تشظي الزمن في الرواية العربية الحديثة، مرجع سابق، ص152.

(46) نفسه، ص68.

(47) نفسه، ص76،77.

(48) نفسه، ص86 .

(49) نفسه، ص86.

(50) نفسه، ص90.

(51) نفسه، ص93.

(52) نفسه، ص96،97.

(53) نفسه، ص55.

(54) نفسه، ص55.

(55) نفسه، ص55.

(56) نفسه، ص54.

(57) نفسه، ص58.

(58) نفسه، ص16، 32.

(59) نفسه، ص323.

(60) نفسه، ص323، 324.

(61) كازانتزاكيس(نيكوس): زوربا اليوناني، تعريب نخبة من الأساتذة، دار المعرفة، بيروت، ط5، 1971.

(62) فرجينيا وولف: السيدة دالوي، ترجمة: عطا عبد الوهاب، دار المؤمون للترجمة والنشر، بغداد، 1986.

(63) مرجريت ديراس، العاشق، ترجمة: محمد عيتاني، دار المروج، بيروت، 1986.